ترميزيَّة[1] الألوان والشّخصيات" في ذاكرة الجسد" لأحلام مستغانمي

د/عيسى طيبي
جامعة البويرة

يأتي الاهتمام بالألوان في "ذاكرة الجسد" لخصوصية تميزها الشخصيات المتحركة في الرواية، ما يعني أنّ التركيز في المقام الأوّل سيكون على تلك التي صار حضورها في النّصّ معادِلًا بشكل أو بآخر لحضور الشخصية[2]؛ وهذه الألوان هي الأبيض والأسود والأصفر، لتأتي بعدها ألوان أخرى هي من قبيل الألوان التي يندرج استخدامُها في نطاق الدلالة الوضعية عموما، وإنْ لم يَخْلُ بعضها الآخر أيضًا من إيحاء، كالأحمر، والأزرق والأخضر وسواها من الألوان التي لا مناص من ذكرها لارتباطها بالتشكيل اللوني لمختلف الأشياء الموجودة في الحياة بشكل عام.

لقد جاءت " ذاكرة الجسد " ضاجة بالألوان، فبرز بعضها تأكيدا لها خاصة وأنّ سارد الرواية رسام يجيد استخدامها، ويعرف إيحاءاتها المتعددة، وإن كان بلوغها حدًّا أعلى من البروز جاء من زاوية أخرى، تتعلق بتأثير هذا اللّون أو ذاك، بوصفه تجربة منفعلة مع ذات السارد، وليس من زاوية دلالاته الوضعية، وهو ما أسهم في فاعليتها على مستوى النّصّ، لأنّ صورتها أخذت أبعادًا أكثر عمقًا من كونها مجرد أصباغٍ تزينية.

1- اللون الأبيض ودلالات الانفتاح:

انصب إدراك السارد لحياة/أحلام اعتمادا على حاسة البصر في المقام الأوّل، وعلى اللباس ولونه الأبيض الذي يُميّزها في لقائهما الأوّل بعد خمس وعشرين سنة عن أوّل لقاء

1- قصدنا بالترميزيّة (symbolisation)تحميل اللّون دلالة معينة؛ هذه الدلالة التي جاءت في " ذاكرة الجسد" قرينة بالشخصيات.

2- وبناءً على ذلك؛ أهمل البحث المفردات التي تتضمن دلالات اللّون من قبيل " دم، رماد، ليل، شجر"، كما أغفل اعتماد المفردات اللّونية الدالة على اللّون بصفة عارضة كاحمرار الوجه خجلًا.

تمّ بينهما، وهي طفلة صغيرة، ليبقى هذا اللّون ميزة دائمة لشخصيتها في شكلها الظاهري أولًا، وفي أبعاد هذا اللّون الرمزية كما يراها السارد من ناحية تفاعله معه من ناحية ثانية، وفي تأثيره النفسي عليه من ناحية ثالثة، فبقراءة خطية للنّصّ يجد القارئ أنّ هذا اللّون أصبح مُرادفًا لها، رغم مراحل علاقتهما المختلفة، فغدا اللّون صورة للشخصية؛ إذ به تُعْرَف واعتمادًا عليه يَتَشَّكل حُضُورُها الفاعل:

- « كان وجهك يطاردني بين كلّ الوجوه، وثوبك الأبيض المتنقّل من لوحة إلى أخرى، يصبح لون دهشتي وفضولي..

واللّون الذي يؤثّث وحده تلك القاعة الملأى.. بأكثر من زائر وأكثر من لون. »[3].

لم يكن خالد يُفضل اللّون الأبيض بحجة كرهه للألوان الحاسمة، ولكنه وجد نفسه مع أوّل لقاء مع حياة/أحلام الفتاة الشابة ينحاز إليه تلقائيا دون الألوان الأخرى، ويَسْتنتج القارئ أنّ نفور خالد من اللّون الأبيض قبل ذلك يعود إلى ارتباطه في مخيّلته بجدران غرفته البيضاء التي هي امتداد للمستشفى الذي أقام به في تونس، لأنّ المستشفى كمكان للعلاج قد يُشكِّل جِسْرًا إلى محطَّة القبر اللاَّحقة التي يدخلها نازلُها بكفن ذي لون أبيض، إذا لم يسعفه الحظُّ وتُكْتَب له النَّجاة، خاصَّة وأنَّ خالدًا كان قادمًا إليه من مواقع الحرب التي تعتبر أماكن للموت:

– «- هل يولد الحبّ أيضًا من لونٍ لم نكن نحبّه بالضرورة!

وفجأة اقترب اللّون الأبيض منّي، وراح يتحدّث الفرنسيّة مع فتاة أخرى لم ألاحظها من قبل..

ربَّما لأنّالأبيض عندما يلبس شعراً طويلاًحالكاً، يكون قد غطَّى على كل الألوان..

قال الأبيض وهو يتأمَّل لوحة:

-Je préfère l'abstrait..!

وأجاب اللّون الذي لا لون له:

- moi je préfère comprendre ce que je vois.

3- أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، منشورات أحلام مستغانمي، بيروت، ط19، 2003 م، ص 51، 52.

ولم تدهشني حماقة اللّون الذي لا لون له، عندما يفضّل أنْ يفهم كلّ ما يرى..

أدهشني اللّون الأبيض فقط.. فليس من طبعه أن يفضّل الغموض!

قبل ذلك اليوم، لم يحدث أن انحزت للّون الأبيض.

لم يكن يومًا لوني المفضّل.. فأنا أكره الألوان الحاسمة.

ولكنَّني آنذاك انحزت إليه دون تفكير. »[4].

ينتقل اللّون من كونه مَظْهرًا للباس حياة/أحلام إلى صورته المجازية، فيغدو كذبها كذبا أبيض أيضًا، وإذا كان اللّون الأبيض قد شَكَّل جاذبية له قبل الدخول معها في علاقة، فإنّه مع المعاشرة صار مُنفِرًا له، في صورة تنمُّ عن تحوُّل في رؤيته لِلَّون بعد تجربته مع صاحبته، ويأتي هذا النُّفُور بسبب كونه قَابِلًا لمختلف الألوان التي يمكن أن تملأ مِسَاحتَه، لأنّه لون بشكل ما لونا تقلُّبيًّا منفتحا، مُشَرَّعًا أبدا، وظامئا إلى ابتلاع بقية الألوان[5]. وإذا ما تمّ ربط هذا اللّون بشخصية حياة/أحلام، وجدنا أنّ لقاء حياة/أحلام بخالد في المناسبتين يبدأ دائما بالأبيض، وبِتَعَرُّفها إليه يبدأ لونُها في استغراقه، فلما يُواجه لوحة يَخَالُها هي ببياضها:

- « لم أكن أتوقَّع أن تكوني المعركة التي سأترك عليها جثّتي، والمدينة التي سأنفق فيها ذاكرتي.. واللوحة البيضاء التي ستستقيل أمامها فرشاتي، لتبقى عذراء.. وجبّارة مثلك. تحمل في لونها كلّ الأضداد. »[6]

ولَمَّا يقرأ روايتها تواجهه هي أيضا ببياض صفحة الإهداء القابل لأكثر من قراءة، ولما جاء زيّاد استمالها إليه، وكتب على بياضها أشعاره المتميّزة فوقعت في حبه، ونسيت خالدًا، ليأتي في الأخير(سي...) فيمحو بياضها بسجله الأسودعلى طريقته لمّا قرر أن يتزوجها، وينسف ماضي والدها الناصع إلى الأبد:

- « لعلّني وقتها بدأت أكتشف تدريجيًّا تلك العلاقة الغامضة التي بدأت تربطك في ذاكرتي بذلك اللّون الأبيض.

4- الرواية، ص 52.

5- ينظر: بهاء بن نوار، شعرية التضاد اللّوني في رواية ذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، العدد75- شتاء- ربيع 2009، ص 98.

6- الرواية، ص 100.

لم يكن كلامك وحده كذباً أبيض.

كنت امرأة تملك قدرة خارقة على استحضار ذلك اللّون في كلّ أشكاله وأضداده. أو لعلّني وقتها أيضا بدأت دون أن أدري وبحدس غامض أخرج هذا اللّون نهائيّاً من ألوان حياتي، وأحاول الاستغناء عنه، في محاولة مجنونة لإلغائك.

كان لونًا متواطئاً معك. منذ ذلك اليوم الذي رأيتك فيه طفلة تحبو بينما أثوابها الطفوليّة البيضاء تجفّ فوق خشبات منصوبة فوق كانون. غمزة مسبقة للقدر الذي كان يُهيّأ لي معك على نارٍ باردة، أكثر من ثوب أبيض.

كان الأبيض لوناً مثلك لونًا يدخل في تركيب كلّ الألوان وكلّ الأشياء. فكم من الأشياء يجب أن أدمّر قبل أن أنتهي منه! وكم من اللّوحات سألغي إن أنا قاطعته! »[7].

وإذ يَدْخُل زياد المتن الروائي يصبح وخالد يتنازعان " اللون الأبيض " الذي هو لون حياة/أحلام، خاصة بإقرارها أنّها لا تُسَوِّد صفحة الإهداء، وتتركها بيضاء اعتقادا منها من أنّ الذين نحبهم مكانهم في الصفحات الداخلية للكتاب، وليس في صفحة الإهداء، وإذ يَعْثُرُ خالد بعد موت زياد على نسخة من كتابها مُهْدًى إليه بالصورة ذاتها التي هي عليه النسخة التي يمتلكها، يزداد يقينه برمزيَّة هذا اللّون، وهو ينفتح على أكثر من قراءة وأكثر من سؤال:

- « ثم أتذكَّر شيئاً.. وأركض إلى الصفحة الأولى بحثاً عن الإهداء، فتقابلني ورقة بيضاء.. دون كلمة واحدة. دون توقيع أو إهداء. فأشعر بنوبة حزن تشلّ يدي، وبرغبة غامضة للبكاء. (...)

كانت تلك الصفحة البيضاء كافية لإدانتك. كانت تقول بالكلمات التي لم تكتب، أكثر ممَّا كان يمكن أن تكتبي.. فهل كان مهمّاً بعد ذلك ألا أجد أيّة رسالة لك في تلك الحقيبة؟

لقد كنت امرأة تتقن الكتابة على بياض.. ووحدي كنت أعرف ذلك.

ماعدا روايتك لم أجد سوى مفكّرة سوداء متوسّطة الحجم موضوعة أسفل الحقيبة- أيضا- كسرّ عميق. »[8].

7- الرواية، ص 227.

8- الرواية، ص 256.

إنّ استحضار عدم توقيع حياة/أحلام على روايتها المهداتين إلى خالد وزياد، وهي تُزَفُ إلى عريس آخر غرضه إكساب " البياض" صبغة التضليل الذي تمارسه حياة/أحلام، خاصة وهي تَهِبُ نفسها على "بياض" أيضًا لرجل العسكر (سي...)، في الوقت الذي مَنَّتْ خالدًا بليلة وهميَّة:

- « كم من ليلة أولى كنت تملكين؟ كم من ليلة وهميّة أولى كنت قادرة على أن تهبي على بياض، كما وهبتِ روايتك الأولى.. نسختين مزورتين لي ولزياد.. موقّعتين على بياض.

لمن ستكونين بعد كلّ ليلة وهميّة؟ ومع من بدأت كذبتك الأولى؟ لمن أهديت هديّتك الملغومة الأولى؟ »[9].

وبعد أن انتهى اللّون الأبيض إلى لون عداه بزواج حياة/أحلام من (سي...)، يُجْبِر المشهد خالدًا على استحضاره من جديد على مستوى الذهن طمعا في أخذ حياة/أحلام، والهروب بها على فرس بيضاء تَجْسِيدًا لمفهوم بداياتِه معها التي تأسَّسَتْ دومًا على البياض، ولكن يجد نَفْسَه عَاجِزًا عن تحقيق ذلك، فرغبتُه الجامحة الحالمة المبنيَّة على عناصر خرافيَّة وأسطوريَّة تصطدم بوقائع انكتب بها مصيره، وتحولت إلى ماضٍ متحقق، لم يبق منها إلاّ الذكريات التي تنضاف إلى ذاكرته العامرة بأنواع الهموم والخيبات:

- « لو كنت « خطّاف العرائس » ذلك البطل الخرافيّ الذي يهرب بالعرائس الجميلات ليلة عرسهنَّ، لجئتك أمتطي الرّيح وفرساً بيضاء.. وخطفتك منهم.. »[10].

يَحْسِمُ هذا النزوع الأسطوري نتيجة البياض بشكل نهائي، ويصبح يحيل على أحلام مُجْهَضَة وأمانٍ ضَائِعَة، ويعكس أحاسيس خالد الموسومة بالاغتراب، وقِلَّة الحيلة والابتكار.

2- التقابل اللوني بين الأبيض والأسود:

يأتي اللّون الأسود ليصبح لون خالد في مقابل لون حياة/أحلام الأبيض، وهو لون مدينته قسنطينة؛ فقسنطينة التي تلبس نِسَاؤُها السواد حدادا، تتطابق مع صورة خالد الذي

9- المصدر نفسه، ص 278.

10- الرواية، ص 360.

يلبس السواد أيضا، ويأتي ذكر اللّون الأسود في الغالب في مقابل اللّون الأبيض:

- « ثمّ لا ألبث أن أتركها وألهث مسرعا إلى صفحة أخرى، بحثاً عن حجج أخرى، عن إيضاحات أكثر، عن كلمات تقول لي بالأسود والأبيض.. ما الذي حدث.

(...)

كان منظر تلك الحقيبة المفتوحة أمامي بأشيائها المبعثرة، وبذلك الدفتر الأسود الصغير الذي كنت ممسكاً به تجعلني أخجل من نفسي في تلك اللَّحظة. وكأنّني بفتحها لم أفعل شيئًا غير تشريح جثّة زياد المبعثرة بأشيائها وأشلائها على سريري، لأخرج منه هذا الدفتر الذي هو قلبه لا غير. »[11].

يعني اللّون الأسود بشكل ما الماضي المُتَحقَّق؛ فبدءًا بلون الدِّفتر الأسود الذي تركه زياد في غرفته ببيت خالد قبل استشهاده، إلى لباس القسنطينيات الملاءات السوداء، إلى ذاكرته المنحازة إلى السواد، يصبح السواد مُرَادفًا للماضي الذي يُمَثِّلُه خالد أو يرتبط بشخصيته بكيفية أو أخرى. أمّا البياض فهو لون المستقبل الذي لا يدري خالد أي لون يصير لونه، مادام أنّه مفتوح على أكثر من لون، كما هي حياة/أحلام التي تَلوَّنت بأكثر من لون:

- « كانت أيَّامي مثل أوراق مفكّرتي ملأى بمسوّدات لا تستحقّ الذكر. وكنت أملأها غالبًا كي لا أتركها بيضاء، فقد كان اللون الأبيض يخيفني دائمًا عندما يكون على مساحة ورق. »[12].

يَتبيَّن من هذا الملفوظ ثنائية ضِدِّية متعلقة باللّونين الأسود والأبيض. فملء البياض بالسواد يعني تحويله إلى ماضٍ، وضَمانُه صورة معيَّنة لا يبرحها، لأنّ تركه على صورته الأولى أمر يجعله قَابِلًا لاحتمالات كثيرة، وتَفَادِيًا لها، يُصْبِح تسويد البياض أمرًا لا مفر منه؛ لأنَّ إمكانية تَحَوُّلِه واردة بامتياز في منظور السارد، إذا لم يسارع إلى تطويقه بالسَّواد، وإذا ما تمّ توسيع هذه الفكرة في إطار الماضي الذي يتشبث به خالد في ظل أحداث الرواية بشكل عام، وجدنا أنّ خالدًا يتمسك بهذا الماضي، ويدعو إلى الحفاظ عليه من خلال خطاباته المتعددة

11- المصدر نفسه، ص 258، 259.

12- الرواية، ص 65.

مع حياة/أحلام نَفْسِها التي يمارس من خلالها آخرون باعتبارها صفحة بيضاء طَمْسًا لهذا الماضي، وكتابة واقع آخر موسوم بسمات لا تمّت بصلة إلى ذاكرة خالد بدله، والتاريخ النضالي للوطن بصورة عامة:

- « وفجأة.. انتابتني رغبة جارفة للرسم. زوبعة شهوة للألوان.. تكاد توازي رغبتي الجنسيّة السابقة وتساويها عنفاً وتطرُّفاً.

لم أعد في حاجة إلى امرأة.. شفيت من جسدي وانتقل الألم إلى أطراف أصابعي..

في النهاية لم يكن السرير مساحة للذّتي ولا لطقوس جنوني. وحدها تلك المساحة البيضاء المشدودة إلى الخشب كانت قادرة على إفراغي من ذاتي.

فيها أريد أن أصبّ الآن لعنتي، أبصق مرارة عمرٍ من الخيبات.

أفرغ ذاكرة انحازت للّون الأسود.. مذ انحزت لهذه المدينة الملتحفة- حماقة- بالسواد منذ قرون، والتي تخفي وجهها- تناقضاً - تحت مثلّث أبيض للإغراء.

سلاماً أيّها المثلّث المستحيل..سلاماً أيّتها المدينة التي تعيش مغلقة وسط ثالوثها المحرّم (الدِّين- الجنس- السياسة).

كم تحت عباءتك السوداء.. ابتلعت من رجال. فلم يكن أحد يتوقع أن تكون لك طقوس مثلث (برمودا) وشهيّته للإغراق..

كانت الأفكار الرماديّة تتوالد في ذهني في ذلك الصباح. والغيظ يملؤني تدريجيّاً كلّما تقدّمت الساعة واقترب وقت قدوم حسَّان وناصر لمرافقتي إلى ذلك البيت، لأحضر عرسك.»[13].

يَخْلُص خالد إلى نتيجة مفادها: إنّ اللّون الأسود لون كاذب أيضًا مثل اللّون الأبيض؛ إذ يتبدَّى في زيّ نسائها بشكل صارخ، واللّائي انقلبن من كونهن بارقة إغراء وفتنة إلى مصدر للكآبة والحزن، ويتفاعلن مع العالم من خلال لازمة سوداء اسمها" الملاية"، وتتسع دائرته لتشمل كذلك رجالها الذين غادروا لباس البرنس الأبيض ليصبح لباسهم قاتما تماما مثل نسائهنَّ، لذلك رأى فيه امتدادًا لغموض الأبيض، وخوائه، واتساع مساحة الكذب

13- الرواية، ص 336، 337.

والاحتمال فيه[14]، ويأتي تداخل اللَّونين من زاوية ارتداء حياة/أحلام البياض المتمازج مع سواد شعرها الحالك في صورة تنمّ عن التحام اللَّونين وتواطئهما، إذ يَنظمُّ الأبيض إلى الأسود في تشكيل هذه الصورة لتوليد دلالات التَّألف والتَّأزر بين اللَّونين التي تصبح مصدر إدهاش للرائي:

- « وكنت أعي في تلك اللحظة، وذلك اللّون الأبيض يوليني ظهره ملتفّاً بشال شعره الأسود.. ويبتعد عنّي تدريجيّاً ليختلط بأكثر من لون، أنّني سواء رأيتك أم لم أرك بعد اليوم، أحببتك.. وانتهى الأمر. »[15].

في مقابل لبس نساء قسنطينة السواد المتمازج مع بياض المثلثات، التي يتركها هذا اللباس في صورة أخرى تكاد تكون هي ذاتها، وتَعبيرًا عن الدلالات نفسها:

- « من الأرجح أنّني هذه المرّة لن أرسم جسورًا ولا قناطر. ربَّما رسمت نساءً بملاءات سوداء.. ومثلَّثات بيضاء.. وعيون كاذبات، واعدات بفرح ما. فاللّون الأسود لون كاذب في معظم الأحيان.. تمامًا مثل اللّون الأبيض.

وقد لا أرسم شيئًا، وأموت هكذا واقفًا، عاجزًا أمام لوحة بيضاء.

فهل أروع من أن نوقّع مساحة بيضاء ببياض، وننسحب على رؤوس الأصابع، مادمنا لم نوقّع شيئًا في النهاية، ووحدها الأقدار توقّع حياتنا، وتفعل بنا ما تشاء؟ »[16].

يأتي لبس اللّون الأسود من قبل خالد في عرس حياة/أحلام لترسيم هذه المواجهة بين اللَّونين في صورة تنمّ عن التَّناقض الذي تحمله دلالات هذا اللَّون الذي يُلْبَس للأفراح والمآتم، وهو أيضا لون المُتَصوِّفَة والزُّهاد، ولون الصبر، ويأتي حضوره بهذه المناسبة لا لِيُسَوِّد البياض كما يريد، وإنّما ليكون هذه المرة شاهدًا على راهنه الذي استباحه الآخرون، حتَّى يضع حدًّا فاصلًا لهاجس تحوّله الذي ظلّ يسكنه منذ أن خبره، وخبر قابليته لكلِّ الألوان الأخرى، ويجعل لَبْسَه في الوقت نفسه حاجزا بينه وبين الآخرين من جهة، وبينه وبين

14- ينظر: بهاء بن نوار، شعرية التَّضاد اللّوني في رواية ذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي، ص 105.

15- الرواية، ص 69.

16- الرواية، ص 338.

حياة/أحلام أيضا من جهة ثانية:

- «لعرسك لبست بدلتي السوداء.

مدهش هذا اللّون. يمكن أن يلبس للأفراح.. وللمآتم!

لماذا اخترت اللّون الأسود؟

ربَّما لأنّني يوم أحببتك أصبحت صوفيّاً، وأصبحتِ أنتِ مذهبي وطريقتي. وربَّما لأنه لون صمتي.

لكل لونٍ لغته. قرأت يوماً أنّ الأسود صدمة للصبر.

قرأت أيضاً أنّه لون يحمل نقيضه. ثم سمعت مرّة مصمِّم أزياء شهيراً، يجيب عن سرّ لبسه الدائم للأسود قال: « إنّه لون يضع حاجزاً بيني وبين الآخرين ».

ويمكن أن أقول اليوم الكثير عن ذلك اللّون. ولكنّي سأكتفي بقول مصمِّم الأزياء هذا.

فقد كنت في ذلك اليوم أريد أن أضع حاجزاً بيني وبين كلّ الذين سألتقي بهم، كل ذلك الذباب الذي جاء ليحط على مائدة فرحك.

وربَّما كنت أريد أن أضع حاجزا بيني و بينك أيضاً.

لبست طقمي الأسود، لأواجه بصمت ثوبك الأبيض، المرشوش باللآلئ والزهور، والذي يقال إنّه أعدّ لك خصيصا في دار أزياء فرنسيّة..

هل يمكن لرسّام أن يختار لونه بحياد؟ »[17].

إنَّ اختيار خالد لِلَّون الأسود بهذه المناسبة لا يجعله يقيم حَاجزًا بينه وبين الآخرين فحسب، وهو أمر حاصل بالتأكيد، وإنّما لأنّه يريد أن يجعل خطابه معهم أيضا ثَخِنًا غير شفاف لا يَسْهُل اخْتِرَاقه، لا لأنّه يحدثهم فقط، وإنّما لأنّه يقابل كل ذلك بدور الصَامِت المُتَرفع، والمُتَأمِل المُدْرِك، والعَارِف المُتَجَاهِل.

وتبقى علاقة اللَّونين الأبيض والأسود في الاشتغال الإنساني"علاقة إشكالية جدلية" باعتبارهما الأكثر كثافة في التَّدليل على مستويات عديدة؛ التاريخية، والثقافية، والرؤيوية،

17- الرواية، ص351.

والإبداعية؛فـ« في علاقتهما الجدلية تتوقف بلاغة حضور وبروز الخاصية اللَّونية لكلٍّ منها بدلالة الآخر، فولا الأبيض لم تدرك قيمة الأسود، ولولا الأسود لم تدرك قيمة الأبيض أيضا، في فعالية تصاد لوني غاية في الخصوصية والجدل والمضاهاة، تنعكس ضرورة على آلية الاستعمال والاستخدام والترميز»[18]. وإذ ما تمّ قراءة هذه الجدلية اللَّونية في سياق الحديث عن خصوصية علاقة خالد بحياة/أحلام أمكن القول أنّ في ضوئها يتشكل معنى الرواية.

3- إيحائية اللون الأصفر:

يَخُصُّ اللَّون الأصفركاترين وحدها[19]، وهي وبارتدائها اللّون الأصفر تنسجم مع صورة شخصيتها، التي تميل إلى الذبول لأنَّها لم تستطع أنْ تحقق توهجا يُذكر عند خالد؛ وقد جاء لونها مُرْتَبِطًا بانتمائها إلى بني قومها، فبنات الأصفر يعني بنات الرُّوم، لأنّ أباهم الأوّل كان أصفر اللَّون[20]؛ وإذا جئنا إلى دلالة هذا اللَّون في العرف العربي وجدنا له معاني مختلفة غير قارة، لكنه يرتبط أكثر ما يرتبط في الذهنية العربية بمعاني الشحوب والذُّبول والخريف، وهي المعاني التي ألفينا أنَّها تتلاقى مع اقتران هذا اللَّون بشخصية كاترين في علاقتها مع خالد:

- « في ذلك اليوم، سعدت وأنا أرى « كاترين » تدخل القاعة. جاءت متأخّرة كما كنت أتوقع. داخل فستان أصفر ناعم، تطير داخله كفراشة. قالت وهي تضع قبلة على خدي...»[21].

وتزداد هذه المعاني ترسيخا مع تأكيد خالد على عدم توافقه معها رغم عامل الزمن الذي

18- فاتن عبد الجبار جواد، اللّون لعبة سيميائية - بحث إجرائي في تشكيل المعنى الشعري -، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2009، 2010، ص 43.

19- تَذْكُر الباحثة رئيسة موسى كريزم أنّ خالدًا كان مُعجبًا باللّون الأصفر الّذي كانت ترتديه " كاترين " دومًا، ونعتقد أن الإعجاب دليل الحبّ، وخالد لم يذكر يوما أنه أحبّ هذا اللّون أو أحبّ صاحبته، وإنّما وَصْفُها بهذا اللّون كان من قبيل تقرير حالة لا أكثر، ولذلك يأتي هذا الحكم مغايرًا لما تمّ إيراده في متن هذا البحث؛ ينظر: رئيسة موسى كريزم، عالم أحلام مستغانمي الروائي، دار زهران للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1432هـ- 2012، ص 364.

20- ينظر: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب، المجلد الثامن، دار صادر، بيروت، ط4، 2005،ص 252.

21- الرواية، ص71.

لعب إلى صالحها، كونها بقيت إلى جانبه طيلة سنوات غربته العشر، ولم يحدث أنْ ذكرها بلون آخر عداه، ما يجعل هذه الدلالات تكتسب صبغة الديمومة:

- « وعندها أخذت كاترين منّي مفاتيح البيت، وطارت كفراشة داخل فستانها الأصفر نحو الباب. »[22].

لم تستهوِ شخصية كاترين خالدًا، فيأتي اللَّون الأصفر بإيحائيته ليُرَسِّخ لدى القارئ هذه المعاني، وإن كان لِلَّون الأصفر دلالات أخرى تُنَاقِض ما تمّ ذكره[23]، فإنّ مجالها لا يَصُب في علاقة خالد بكاترين الموسومة بالبرود وعدم التوهُّج[24].

4- اللّون الأحمر بين اللّذة والألم:

ترتبط دلالة اللَّون الأحمر المباشرة بالشهوة، والنشوة، والثورة، والتمرد، والحركة الصاخبة، والغضب، والانتقام، والقسوة، والانفعال، والخطر، والعنف، والدموية[25]؛ ويظهر هذا اللَّون في " ذاكرة الجسد " مع خواطر زياد الَّتي اطّلع عليها خالد بعد استشهاده، فتأتي كتابة بعض أسطرها بالأحمر لتشرح شهوة الجسد وعواطف زياد الملتهبة من جهة، ولتؤجج مشاعر الحقد والغيرة – من غير قصد - في نفس خالد تجاهه وتجاه حياة/أحلام المتواطئة معه من جهة ثانية:

- « كانت الصفحات تتتالى مليئة بالمقاطع الشعريّة المبعثرة بين تاريخ وآخر. بالكتابات الهامشيّة.. ثمّ بقصائد أخرى تشغل وحدها أحياناً صفحتين أو ثلاثاً. ثمّ خواطر قصيرة من بضعة سطور مكتوبة وسط الصفحة بلون أحمر دائماً.. وكأنّه كان يريد أن يميّزها عن بقية

22- المصدر نفسه، ص 75.

23- نُدْرِك أنّ لهذا اللّون دلالات أخرى، ولكن اهتدى البحث إلى هذه المعاني بالنظر إلى السياق العام للنّص، ولمعرفة المزيد عن دلالات هذا اللّون، ينظر: ابتسام مرهون الصفار، جمالية التشكيل اللوني في القرآن الكريم، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1431،1- 2010، ص 324-341. ولمزيد من الاطلاع في موضوع الرمز اللّوني؛ ينظر: يوسف حسن نوفل، الصورة الشعرية والرمز اللوني- دراسة تحليلية إحصائية لشعر: البارودي ونزار قباني وصلاح عبد الصبور-، دار المعارف، القاهرة، مصر، دط، دس.

24- لمعرفة المزيد من التفاصيل المتعلقة بهذه العلاقة؛ ينظر: عيسى طيبي، الخطاب السردي، ثلاثية أحلام مستغانمي (ذاكرة الجسد- فوضى الحواس- عابر سرير) أنموذجا، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في الأدب العربي، تخصص: قضايا الأدب ومناهج الدراسات النقدية والمقارنة، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات، جامعة الجزائر2، السنة الجامعية 2012-2013، ص 333- 335.

25- ينظر: عبد الرحمن محمد العمراني، اللون في شعر البردوني (الأعمى)، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، العدد الثلاثون، 2010، ص: 200. وينظر أيضًا: نعيم اليافي، تطور الصورة الفنية في الشعر العربي المعاصر، اتحاد الكتاب العرب، دمشق 1982، ص 222.

ما كتب.

ربّما لأنّها ليست شعراً وربّما لأنّها كانت أهمّ من الشعر. »[26].

ويزداد مع توالي الصفحات شك خالد في خيانة زياد له، فيتوقف عن القراءة حتّى لا يعثر على كلمات صريحة تؤكد ظنونه، وتُرَسِّم هَوَاجِسَه:

- « تستوقفني بعض الكلمات، وتستدرجني إلى الذهول..

ويأخذ الحبر الأحمر فجأة لوناً شبيها بدمورديّ خجول يتدحرج على ورق.. ليصبح لون « خطيئتك الأولى.. ».

فأسرع بإغلاق تلك المفكّرة وكأنّني أخاف إنْ أنا واصلت قلب الصفحات، أنْ أفاجئكما في وضع لم أتوقَّعه! »[27].

ليَخْلُص خالد بعد زواج حياة/أحلام إلى أنّ اتهامه لزياد لم يكن إلاّ تحت تأثير الغيرة، وأنّها لم تُسلم له قِيَادها كما كان يعتقد، فيأتي اللون الأحمر في المحصلة قرينا بفعل زواج (سي...) منها، وكان قبل ذلك مُرْتَبِطًا بنصوص زياد الواردة في شكل خواطر:

- « تراك تركت طفولتك لي، وأنوثتك له؟

ها هو الجواب يأتيني بعد عام من العذاب. ها هو أخيراً لزج.. طريّ.. أحمر..ورديّ.. عمره لحظات. »[28].

كما يأتي هذا اللون مُتَصِلًا بالحديث عن طقوس العيساوة التي يستحضرها خالد ليلة زواج حياة/أحلام دلالة على تألمه الشديد، وهو يدري يقينا أنّ حياة/أحلام قد صارت لغيره:

- « أبي يا « عيساوي » أباً عن جدّ؟

أنتَ الذي كنت في تلك الحلقات المغلقة، في تلك الطقوس الطرقيّة العجيبة، تغرس في جسدك ذلك السفّود الأحمر الملتهب ناراً.. فيحترق جسدك من طرفٍ إلى آخر، ثمّ تخرجه دون أن تكون عليه قطرة دم ؟

26- الرواية، ص 258.

27- المصدر نفسه، ص 261.

28- المصدر نفسه، ص 365.

أنت الذي كنت تمرّر حديده الملتهب والمحمّر كقطعة جمر، فينطفئ جمره من لعابك، ولا تحترق. »[29].

تجدر الإشارة إلى أنّ هذا اللّون يأتي – عادة - في نصوص أخرى مُتَصِلا بالمعارك التي خاض خالد تجاربها ضد الاستدمار الفرنسي، وخاضها زياد هناك في بيروت حيث امتدادات قضيته الفلسطينية أيضًا، مع الفوارق الزمنية بين التجربتين، إلاّ أنّ نص" ذاكرة الجسد " لم يَحْفَل باللّون الأحمر صراحة بربطه بالحروب والمعارك، وجاء مُتَصِلًا بأمور ثلاثة أساسية:

الأمر الأول: نصوص زياد التي عثر عليها خالد في مفكرته والمكتوبة باللّون الأحمر، مَا يُكْسِب هذه النصوص شهوة الجسد.

الأمر الثاني: ويتعلق بالزواج وتحديدا دلالة العذرية التي تبقى في العرف الاجتماعي أحد سمات الطهارة والعفة.

الأمر الثالث: التعبير عن دلالات الألم والعذاب.

ويُسْتَنْتَج أنّ الأمور الثلاثة المتعلقة بهذا اللّون موضوعها حياة/أحلام، فهي التي تُشَكِّل بُؤْرتَه الحقيقيَّة، لأنّها هي الَّتي جعلت زيادًا يكتب باللون الأحمر، وهي الَّتي نزفت ليلة زفافها دما أحمر، وهي الَّتي جعلت خالدًا يستعير وهمًا طقوس عذاب الجسد بالحديد الملتهب الأحمر.

5- رمزية اللّون الأزرق الفضائية والتاريخية:

لم يرد اللّون الأزرق كثيرا في النّصّ، ودلالته مرتبطة بوجهة نظر خالد الَّتي تتَّصل بذاكرته باعتباره شخصيَّة مناضلة، وله موقف من فرنسا ليس بعيدا عن تاريخه النضالي بشكل عام، فخالد لا يحبّ هذا اللّون، لأنّ هذا اللّونأكثر ما يرتبط ذكره بالبحار والأنهار التي تغيب في فضاء قسنطينة، ولكنّها تحضر مع فضاء باريس من خلال إطلالة بيته على نهر السين الذي يأخذ دلالات سلبية في منظوره لأنّ ماضيه يبقى حائلا بين انسجامهما،(لمْ يذكر خالد صراحة سبب هذا العداء، ولكن بالنظر إلى جوهر أحداث الرواية المؤسسة على

[29]- الرواية، ص 361.

الذاكرة، يميل القارئ إلى أنّ هذا العداء ناجم عن تلك الأحداث التي شهدها هذا الجسر إثر مظاهرات 17 أكتوبر 1961، والَّتي خلّد صورة ضحايا أحداثها المؤلمة في لوحة من لوحاته)[30]، إذ يجد نفسه معه على طرفي نقيض، لذلك تربطه علاقة عداء بنهر السين ومياهه الزرقاء التي تَستفزُّه ولا يستحسنها، خاصة وأنّ هذا النَّهر يأخذ أبعادًا أخرى في مخيّلته؛ لأنه يُذَكِّره بالعيون الزرق التي لا يحبّها، فالزُّرقة أبغض شيء من ألوان العيون إلى العرب؛ لأنّ الروم أعداؤهم وهم زرق العيون[31]، وهو من هذه النَّاحية يلتقي مع رؤية العربي عموما الذي تغريه العيون السود[32]، ولا يحفل بألوان العيون الأخرى إلاّ نادرا،بل ويُقِرُّ بكراهيته للعيون الزُّرق، كما يتجلَّى في موقف خالد الوارد في الملفوظ التالي:

- « في ذلك الصباح ، أشعلت سيجارة صباحيّة على غير عادتي.

وجلست على شرفتي أمام فنجان قهوة، أتأمّل نهر السين، وهو يتحرّك ببطء تحت جسر ميرابو.

كانت زرقته الصيفيّة الجميلة، تستفزني ذلك الصباح دون مبرّر. تذكرّني فجأة بالعيون الزرق التي لا أحبّها.

أترى لأنّه لا نهر في قسنطينة.. أعلنت العداء على هذا النهر؟ »[33].

إنّ الماء الرائق الصافي لا لون له ولا طعم ولا رائحة، ولكنه يكتسب لون الأجواء المحيطة

30- يتمّ شرح تفاصيل هذه اللوحة في " عابر سرير": ينظر: أحلام مستغانمي، عابر سرير، منشورات أحلام مستغانمي، بيروت، ط2، 2003، ص 58-61.

31- ينظر: محمود بن عمر الزمخشري، الكشاف – عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل -، رتبه وضبطه وصححه : مصطفى حسين أحمد، ج 3، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1987، ص 87.

32- نلاحظ تواتر هذه الرؤية في الشعر العربي منذ العصر الجاهلي، ولمزيد من من الإيضاح في هذا الموضوع؛ ينظر: - الزوزني، شرح المعلقات السبع، مكتبة المعارف، بيروت، دط، 1994، ص 8، 31 ، 32.

- أحمد الهاشمي، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، دار الكتاب العلمية، بيروت، ط27، 1398هـ، 1978م، ص407.

- إيليا أبو ماضي (شاعر المهجر الأكبر) - شعر ودراسة -، التقديم: جبران خليل جبران، التصدير: الدكتور سامي الدهان، الدراسة: الشاعر الفقيد زهير ميرزا، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، لبنان، ط2 مزيدة تحتوي شعر الشاعر كله، 1963، ص 315.

- بدر شاكر السياب، ديوان بدر شاكر السياب، المجلد الأول، دار العودة، بيروت، دط، 1986، ص 474.

33- الرواية، ص 189.

به[34]، وقد أخذ - هنا- لون السَّماء الصَّافية في فصل الصَّيف، ما جعل خالداً يَقْرِن بين اللّون الأزرق والدلالات التي تنجم عنه بوصفه تجربة منفعلة مع ذاته؛ فمن العيون الزُّرق التي لا يحبُّها، إلى عدائه المعلن لنهر السين، يبقى "الأزرق" لون الضفة الأخرى، لأنّه لا نهر في قسنطينة، ولأنّ عيون أهلها تَكَحَّلَت بالسواد.

6- دلالات اللّون الأخضر:

أمّا اللّون الأخضر فله أثر طيب في النُّفوس في العرف الاجتماعي، لأنّه لون الطبيعة التي تُزهر بعدجدب، وتُورق بعد قحط، فجاء الوشم به طمعا في امتداده مع عمر الإنسان، ويبقى الجسد موضوعا له وبصورة خاصة جسد المرأة الذي يُعْرَف بالجمال، ويسعى إليه في الآن نفسه، ويأتي حديث خالد عن هذا اللَّون من زاوية هذه الدَّلالة المكثَّفة الَّتي يحملها الوشم من جهة، ومن جهة ثانية من زاوية صلة هذا الوشم الوثيقة تحديدا باللّون الأخضر في حد ذاته كلون يُرْسَم به على الجسد، ويمسح كلَّ لون عداه لأنّه أبقى:

- « أقبّل كلّ شيء فيك، أمحو بشفتيّ حمرة أطرافك المخضّبة بالحناء، لأوشّمك بشراسة القُبَل، عساك عندما تستيقظين تكتشفيني مرسوماً على جسدك كالوشم، بذلك اللّون الأخضر الوحيد الذي لا يرسم إلّا على الجسد! »[35].

يعكس هذا الارتباط بين الوشم واللّون الأخضر في منظور خالد خصوصيَّة لا تُفْلِتُها الذَّاكرة، لذلك استحضرها في رمزية لافتة، غايتُها خلق صورة جميلة، يتواشج فيها جسد حياة/أحلام بعبق التاريخ.. وهكذا يظلّ اللَّون الأخضر أحبّ الألوان إلى الأنفس لارتباطه بمعاني الحياة، فيأتي الرَّسم به على جسد امرأة جميلة، إثراءً لصورة الجمال الناجمة عن اللّون في حد ذاته، وعن الجسد الجميل الذي يُشكّل لوحته، ممّا يبعث على التكثيف الدَّلالي لمفهوم الجمال في نفس الرَّائي والمرئي على حد سواء.

7- سمات ألوان أخرى:

34- ينظر: ابتسام مرهون الصفار، جمالية التشكيل اللوني في القرآن الكريم، ص 167.

35- الرواية، ص 333.

تأتي ألوان أخرى في الرواية متفرعة عن الألوان الأساسية الأحمر، والأخضر والأصفر، والأزرق، واللّونين المحايدين الأبيض والأسود[36]؛ كالرَّمادي والبنّي، اللّونيين اللّذين يميّزان سمات رجال قسنطينة بشرةً وبدلةً ولون شَعْر، وهو مظهر يرمز بشكل ما إلى امّحَاء صفة اختلافهم، ويُكرّس فكرة تطابقهم من جهة، ويرمز إلى تطابق لباسهم ولونهم من جهة ثانية، كما يعكس من ناحية ثالثة تحوّل رجال قسنطينة الذي استبدلوا ألوان بدلاتهم الماضية المشرقة بألوان قاتمة تشرح من منظور خالد خيبة الحاضر، ووضعية البلاد البائسة:

- « والرّجال في بدلاتهم الرماديّة أو البنّيّة التي لا تختلف عن لون بشرتهم.. ولا لون شعرهم. والتي يبدون وكأنّهم اشتروها جميعاً عند خيّاط واحد.

وقلّما كان يبدو من بين الحشود نقطة ضوء، أو لون زاهٍ لفستانٍ أو لبدلة صيفيّة.»[37].

يَشْرَحُ ارتداء اللّونين الرَّمادي والبنّي وضع البلاد البائس، ويَسِم تلوُّن رجالها بهما بميسم قاتم يُشْعِر الرَّائي بدلالات سلبية، خاصة وأنّ هذين اللّونين يقاربان لون بِشْرَتِهم وشَعْرِهِم، ممّا يُضفي على الذَّات الَّتي تتوشَّح بهما لون الدُّجى أو يكاد، في ظلِّ تناقص لافت للألوان الأخرى الَّتي ترتبط بدلالات إيجابية، كانت إلى وقت قريب ميزة أهل قسنطينة كالألوان الزاهيَّة والصافيَّة.

وبالنتيجة؛ يمكن إجمال الاستنتاجات المتوصل إليها، في النُّقط التالية:

- جَاء اللّون الأبيض مُرَادِفًا لشخصية حياة/أحلام، وَرَمْزِيَّتُه تَكْمُنُ في انفتاحه، وقابليَّتِه للألوان الأخرى.

- أمّا اللّون الأسود فهو لون شخصية خالد، يرتبط اِرتبَاطًا وثيقا بماضيه النِّضالي الطويل، وبذاكرته المنحازة دومًا إلى السَّواد، كما إنّه لون أهل مدينته قسنطينة.

-إنّ اللّونين الأبيض والأسود لونان متواطئان، كثيرا ما يتمازجان لتوليد دلالات التَّضامن والتَّآلف.

-اِخْتَصَّ اللّون الأصفر بشخصية كاترين دون سواها، وجاء لونُها تعبيرًا عن اِنْتِمَائِها لبني

36- ينظر: عبد الرحمن محمد العمراني، اللون في شعر البردوني (الأعمى)، ص 190.

37- الرواية، ص 312.

قومها- أي الرُّوم-، وفي الوقت نفسه عَاكِسًا طبيعة علاقتها مع خالد التي اتّسَمَت بطابعي الشُّحوب والذُّبول.

- ارتبط اللّون الأحمر بنصوص زياد الشعرية، وبليلة زواج حياة/أحلام، كما جاء هذا اللّونُ قَرينًا بالحديث عن طقوس الألم والعذاب اللّذين يُكَابِدُهما " العيساوي".

- عَبَّر اللّون الأزرق عن الضفة الأخرى، أي مدينة باريس التي بها نهر السين، والُّتي يتميز أهلُها بالعيون الزُّرق، ويأتي ذكر هذا اللّون في سياق الحديث عن عداء خالد لنهر السين، وعدم حبّه للعيون الزُّرق، لأنّه لا نهر في قسنطينة (فضلا عن العامل التَّاريخي)، ولأنّ عيون أهلها سود.

- وورد اللّون الأخضر مُتَصِلًا بالوشم الَّذي يخضع له جسد المرأة، سعيًّا إلى الجمال، وارْتباطًا بمعاني الخصب والحياة.

- وَوَسَم اللَّونان الرَّمادي والبُنّي رِجَالَ قسنطينة، بِشرَةً، وبدْلَةً، ولَوْنَ شَعَر، في رمزيَّة لافتة تُبرز تخلّي أهلِها عن الألوان المشرقة، انعكاسًا لوضع بائس، وتَعْبِيرًا عن خيبة الرَّاهن.